# هاشتاج #

يوم مشحون، ساعات لم تنته مملوءة بالتفاصيل التى تخص العمل والبيت والأبناء، شعور بعدم الرضا والحنق والإنهاك، عشرات الأعباء اليومية؛ التي يئنُّ تحتها كاهلي، المسؤوليات التي يعجّ بها عقلي.

في مكتبي، أخذتُ ألملم أوراقي وحاسوبي في حركة مكوكية اعتدتها مع ضيق الوقت، لكي أعود لمنزلي لمهامي الباقية، كثير من المهام لم تنتهِ بعد، على وشك الانصراف من الشركة، وقد ملأَني الإرهاق والتعب، قدماي لا تكادان تحملاني من شدة الألم. لم يكن بالجديد، ولكني أشعر داخلي بالتعب الشديد، عتمة تراودني حينما أتذكر أنني سأعود لمنزلي، لتبدأ رحلة أخرى، معركة من الضغوط النفسية. عليَّ إعداد الطعام، وتجهيز السفرة، وبعدها مذاكرة الأولاد. أما آن لعذاباتي أن تنتهي؟

كيف لهذه السنوات أن تكون أجمل سنوات العمر؟!

تدخل أمل السكرتيرة، هناك من يريد مقابلتك، وعدت ألا تُطيل! لتدخل سماح بابتسامة هادئة، تتأسف لإزعاجي؟ وهي تعلم أنه موعد انصرافي، لكنها لن تطيل! أكملت أن سبب تأخيرها هو الطريق، استسلمت لهذا الموقف الصعب، وأنا أتوعَّد (أمل) في سرِّي؛ لإحراجي باستقبال هذه الفتاة، بشكلٍ لم تترك لي فيه فرصةً للرفض. ابتسمتُ لها ابتسامةً شاحبةً، ودعوتها لأن تخبرني بما تريد في عجالة، لم أدعُها للجلوس وهي لم تفعل، لتبدأ حديثها وهي تخرج من شنطة متواضعة تحملها مجموعةَ عيناتٍ، مرفقةً معها الأسعار الجديدة والخصم عليها، وتعلل زيادة السعر بارتفاع أسعار المواد الخام نفسها اللازمة للعمل. طلبت منها أن تحضر غدًا وتترك لي الأمر للدراسة؛ فقد كنت أريد الانصراف. ابتسامتها الهادئة التي لا تفارقها وسعادتها أصابتني بعدوى الابتسام، فابتسمت لوجهها الباش، تلك الفتاة الصغيرة التي تصغرني بأعوام، تعمل مندوبة لأحد المصانع التي تنتج مستلزمات البناء. لا أنكر أنها تحمل قبولًا؛ فهي لا تزال صغيرة لم تمتلئ حياتها بالأعباء!

سألتها مداعِبة:

لا تزالين صغيرة يا هندسة ولا تعلمين كيف تدار البيوت؟

لترد هي:

أنا يا باشمهندسة أحمل مسؤولية البيت بكامله! فأنا الأخت الكبرى! جاء ردِّي مستنكرًا:

والداكِ منحاكِ التصرُّف في شؤون المنزل؛ لأنك الكبيرة؟

كانت إجابتُها بالنفي، وإكمالُ حديثِها بأنَّ والديها تُوُفيا، أخجلَني، ثمّ سألتها:

- منذ متى؟
- عشر سنوات!
- منذ عشر سنوات في عمرك أيتها الصغيرة تحمِلين المسؤولية؟ ثم حاولت أن أعرف أكثر فسألتها:
- حادث؟

أجابت: لا... فقد كان والدي يعاني من تلفٍ بالكبد أثَّر في صحته كثيرًا وفي درجة وعيه، وكنا دائمًا في المستشفى، كانت أمي حينها قوية بصحة جيدة ترعانا وترعى والدي، وفجأةً تعبت أمي؛ لنكتشف أن المرض اللعين انتشر في كامل الجهاز

الهضميّ، والموت يدنو منها، وأصعب مرحلة كانت العلاج الكيماويّ الذي كان يستلزم عزل إخوتي الصغار، ليخطفها الموت من بيننا في غضون شهرين.

لا أدري، ولكنني بُهِتُّ، فقد صدمتني كلماتها، ووجدت نفسي أسيرة لأن أسمع بقية قصتها، فأكملت:

«بَقِيَ أبي من غيبوبة كبدية لأخرى، وأصبحت أنا المسؤولة عن أبي المريض وإخوتي وأنا لم أتجاوز الـ ١٨ سنة. عارفة؟ بالرغم من حتمية الذهاب بأبي ومرافقته إلى المستشفى؛ التي كانت أثقل شيءٍ على قلبي، فإنني تمنيت لو ظل على قيد الحياة. أراد الله أن يُتوفى قبل نهاية العام. فأغلقت بابي على إخوتي ونفسي، وكان عليَّ أن أتولى مسؤوليتَهم». فسألتها (مصدومةً):

كم عدد إخوتك؟

- معي أربعة. منهم اثنان توأم.
- أليس لكم عائلة أو أحد يرعاكم؟ أجبتها، فوضّحت:
- لي خال في محافظة أخرى، يسأل عنَّا كلَّ حين، وعم متوفّى قبل أبي، وآخر يعمل في ليبيا متزوج، ولا يأتي من سنين.

سألتها: كيف استطعتِ أن تتحمَّلي هذا كله؟

- يا باشمهندسة نحن نُبتلى، والله يدبر ويمنح القوة على قدر البلاء، حينما سأتزوج سيكون طفلى الأول هو الابن الخامس، فقد ربيت أربعة قبله. ثمّ دخلت في حقل من الأسئلة الصعبة:

- كم عيدًا مرّ عليها وهي الأم والأب، وعليها أن ترسم السعادة على وجوه إخوتها؟ كم صباحًا استيقظت فيه متلهفةً لتوقظَ إخوتَها وتعدَّ لهم الإفطار؟ كم مرةً طلب منها أحدُهم شيئًا، وصَعُب عليها تدبيره؟ كم من مسؤوليات تحملها، ولم تذكرها، ولكنني أعيها، كَوْني أمًّا ومسؤولة.

أصبحت الآن أمامها امرأةً مرفهةً، ذابت مسؤولياتي أمام مسؤولياتها، وتبخرت تأففاتي في حرارةِ ابتسامتها.

كنتُ أتباهى بأنني أرعى أبنائي في غياب والدهم في العمل، فى حين هي كانت ترعى إخوتها في غياب والديها عن الحياة!

يا للمفارقة!

فى حين تتصارع الأفكار في رأسي، قطع حديثَ أفكاري سؤالُها:

- لقد تأخرتِ، أليس كذلك؟

أجبتها:

لا أبدًا... فلم أعلم أكانت تحتاج إلى أن يستمعَ إليها أحدٌ أم أنا؛ التي كنت أحتاج إلى أن أستمع إليها؟

أخرجتْ كشافًا صغيرًا من حقيبتها بوصفه نوعٌ من الدعاية... كشّاف معروف لدينا نحن المهندسين يُلبس على الرأس، لينير لنا بسهولة فى أثناء العمل في غُرَف الكهرباء، فتظهر تفاصيلها الصغيرة، كشاف يحمل اسم شركته، ونوره من سنا ابتسامتها!

شكرتها. سلمت عليَّ وغادرت، أمسكت الكشاف أقلبه في يديَّ. نعم قد كنت أحتاج إلى كشافٍ اليومَ، ينير تفاصيل حياتي، ويظهر كثيرًا من النِّعَم.